أحمد عبد الرحيم نصر، الأغوات : دراسة تاريخية ،مقارنة لأغوات المسجد الحرام بمكة والمسجد النبوى بالمدينة
( الخرطوم: معهد الدراسات الافريقية والآسيوية، ١٩٨٦ )
٩٣ صفحة ،٢٠ جنيها .

الدراسة التى بين أيدينا دراسة تاريخية مقارنة لأغوات المسجد الحرام بمكة والمسجد النبوى الشريف بالمدينة فى وجوه عديدة. فقد ساهمت هذه الدراسة فى تعريفنا بفئة الأغواتالتى كانت وستظل مجهولة لولا الفضول العلمى والبحث الدؤوب الذى تميّز به المؤلف .

تنقسم هذه الدراسة الى جزأين: الجزء الأول يتناول تاريخ الخدمة فى المسجدين،وأصل كلمة أغوات ،وتاريخ خدمتهم فىالمسجدين (الحرم المكى والمسجد النبوى بالمدينة ) وعددهم ،وجنسياتهم ورتبهم وزيهم ،وواجباتهم ،ودخلهم ،ووضعهم الاجتماعى.

والجزء الثانى من الدراسة ينشىء مقارنة حية بين مؤسسة الأغوات قديما وحديثا فى سرد تاريخى يعرض عناصر ومراحل التغيير المرحلية التى لازمت المؤسسة. وتخلص الدراسة الى أنّ مؤسسة الأغوات قد تندثر بفعل التطوّر والتغيير الاجتماعى تاركةبعض أو كل وظائفها لمنظمات أو مؤسسات أخرى.

فى الجزء الأول من الكتاب ناقش الكاتب أصل كلمة أغوات التى مفردها (أغا) وهى كلمة تركية- كردية- فارسية: وطالما أنّ اللّفظة ذات دلالة على فئة اجتماعية من البشر كائنين ويحيون حيواتهمواعين ومتفكرين فى عالم ذى معنى فيبقى من الصعوبة بمكان تحديد الأصل الثقافى - الاجتماعى للكلمة.

الأكراد يطلقون أغوات على الشيوخ والأكابر،وتعنى (أغا) عند الأتراك الرئيس أو السيد أو كلقب تشريفى يطلق علي أميرات الأسرة المالكة ،أو على الأخ الأكبر ذى السلطان على اخوانه عند المغول. أمّا فى الدولة العثمانية فكانت تطلق علىالشيخ أو السيد أوالاقطاعى صاحب الأرض أو رئيس خدم البيت . وفى عهد صلاح الدين الأيوبى كانت

تشير الى العاملين فى الوظائف الحربية مقابل كلمة " الأفندية " للعاملين فى الوظائف المدنية. وفى ذات العهد أيضا كانت تطلق على " الخصيان" العاملين فى القصور مع الحريم،والخصيان الواقفين على خدمة السلطان. أمّا فى بلاد الحجاز فقد اقتصر معنى كلمة (أغوات) على " الخصيان" والطواشية (مفردها طواشى وتعنى الخصى) الذين يعملون فى خدمة الحرمين الشريفين.

وكان تعيين شيخ الحرم ونائبه (وهما من الأغوات) يتم من الأستانة (استنبول) عاصمة الخلافة الاسلامية آنذاك.

تازيخ انخراط الأغوات فى خدمة الحرمين الشريفين يرجع الى مدة تقارب الألف عام بالنسبة للمسجد النبوى وقد تزيد بالنسبة للحرم المكى. وممّا لا شك فيه أنّ تقليد الأغوات قد ابتدعه الملوك والسلاطين. فقد ابتدع معاوية بن أبى سفيان أو يزيد بن معاوية نظام خدمة الأغوات للحرم المكى. كما ابتدع الملك الناصر صلاح الدين ابن أيوب أو السلطان نور الدين الشهيد فى أول دولة الأكراد فى عام ٥٥٧ هـ نظام خدمة الأغوات بالنسبة للمسجد النبوى.

واستمرّ تقليد ابتعاث الأغوات لخدمة الحرمين الشريفين فى الفترات اللاّحقة كتقليد يتباهى به ويتبارى حوله الملوك والسلاطين فى البلاد الاسلامية التى من بينها الممالك الاسلامية الافريقية مثل ودّاى والفور والمسبّعات والفونج وتمبكتو .... الخ. وكان الأغوات يعتبرون كوقف أو صدقة جارية لهؤلاء الملوك والسلاطين وأثرياء القوم وعليتهم. وفى العادة تخصص للأغوات أوقاف لتكون لهم مصدر زرق وإعاشة بالاضافة للهدايا والهبات التى ترد اليهم من ذوى الاحسان من زوّار البقعتين الطاهرتين.

واختيار الخصى للوقف يكون "لكونه أطهر وأنزه وأكثر براء وأكثر فراغا من الأشغال إذ لا أهل له ولا ولد يشتغل بهم وهو أبعد من دنس الجنابة ومعاشرة النساء (العياشى"١٣٦٠هـ" وقدأورده المؤلف على صفحة ١٥ من كتابه). والأغوات خليط من مختلف الجنسيات منهم الاحباش والصقالبة والهنود وأهل شمال افريقيا والمغرب والسودان. إلا أنّ أغلبهم فى الوقت الرّاهن من السودان والحبشة،وقد بلغ عددهم بضع مئات فى الحرمين الشريفين: المكى والمدنى.

تتميز جماعة الأغوات بأنّها تعمل فى شكل مؤسسةٍ أو منظمة لها ترتيباتها واجراءاتها الداخلية ويحكمها تنظيم دقيق تحكمه لوائح وأعراف داخلية بالاضافة لتميّزهم بالزى الموحّد حسب الرتب : شيخ الأغوات ، النقيب ، الأمين، الخبزية ، البطالون المتفرقة وأولاد العمل أو أولاد الخدمة الذين يمثلون قاعدة الهرم فى التدرّج الوظيفى للأغوات ونظامهم شبيه بالنظام العسكرى فيما يتعلّق بأهمية الرتبة وما يتبعها من واجبات ونفوذ.

أمّا الجزء الثانى من الكتاب الذى تناول وضع الأغوات فى الوقت الرّاهن فقد ناقش الكاتب قضايا كثيرة منها أنّ عدد الأغوات قد انحسر فى الوقت الرّاهن الى ثلاثين، أربعة عشر منهم بالحرم المكى وستة عشر بالحرم المدنى. وقد انضمّ آخر أغا للخدمة قبل أكثر من عشر سنوات . وأصبح الانخراط فى الخدمة يتم عن طريق أغا عامل أو التقديم من الحجيج القادمين للكعبة مع اشتراط موافقة الأغوات آخذين فى الاعتبار حسن السير والخلق والسلوك . ثم يرفع الأمر للموافقة السامية ومن ثم يتم تدريب الأغا الجديد على العمل. ونتيجة للتغيير الاجتماعى المضطرد وتطوّر الخدمات فقد تنظيم الأغوات المتعدد المهام بعض وظائفه واستقلّت بها تنظيمات أخرى: أوكلت النظافة فى الحرمين الشريفين لشركتين متخصصتين فى النظافة وحلّت الكهرباء محل اضاءة الشموع بالاضافة لقيام مؤسسات مثل جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بأداء بعض الأعمال التى كان يؤديها الأغوات مثل فصل الرجال عن النساء فى رحاب الحرمين. وأخيرا أصبح الأغوات جزءا من الخدمة المدنية الرسمية تسمّى " إدارة الأغوات" وتبعت فيما مضى وزارة الحج والأوقاف ثم أصبحت جزءا من الأمانة العامّة لشئون الحرمين الشريفين.

فى عرض تاريخى ـ تحليلى (بنائى ـ وظيفى) شيق طرح المؤلّف تطوّر وانحسار مؤسسة اجتماعية دينية هى مؤسسة الأغوات التى ظلّت فى خدمة الحرمين الشريفين لأكثر من عشرة قرون من الزمان. وجهد المؤلّف فى نظرى يوفر تمرينا قيما للذين يبحثون عن سوسيولوجيا المؤسسات الدينية فى علاقاتها الأرحب بسوسيولوجيا المجتمع ككل. وفوق كلّ تبقى أهمية هذه الدراسة القيمة فى أنّها تثير كمية من

الفضول الذى يبقى فى انتظار الاشباع،وكذا الأسئلة التى تنتظر الأجوبة العلمية.

من هذه الأسئلة مثلا:كيف برزت مؤسسة الأغوات الى حيّز الوجود فى إطار تاريخية الواقع العربى الاسلامى،أى فى علاقة الدين بالدولة ومحاور السلطة والقوة الاجتماعيين والتاريخيين. والمقصود هنا ليست تلك العلاقة التى يتم فيها اعمال مفردات وترتيبات الشرع (الشريعة) كأدوات فصل بين الناس (وهو مبحث لا غضاضة فيه). المقصود هنا بشكل رئيسى هو اعمال الدين ومفرداته (خاصة العمومية منها) لإضفاء الشرعية على الحاكم. فالحكام الملتزمون إسلاميا هم الذين يوقفون الأغوات لخدمة الحرمين الشريفين.

إنّ التغيير المستمر الذى لازم مؤسسة الأغوات ما هو ـ فى الحقيقة ـ إلا تغيير لازم الدولة الاسلامية كمؤسسة من جهة،وتغيير لازم علاقة الدولة بالدين من الجهة الأخرى. إذ بمرور الزمن أدّى تطوّر هذه العلاقة لظهور ما يعرف "بالدين الرسمى" ومؤسساته (مؤسسة الأغوات منها) التى أصبحت بدورها جزءا من مؤسسات الدولة. وأخيرا أصبح الأغوات موظفين معينين على المرتبة الثالثة والثلاثين من نظام المستخدمين،ومعنى هذا أنّ مرتباتهم تبدأ بـ (٢٤٠٠) ريالا فى الشهر،وتنتهى بـ (٢٩١٠) ريالا فى الشهر (ص ٤٩).

وتفتح هذه الدراسة الشهية لجدل النظم الاسلامية المختلفة. فالدولة الاسلامية ـ وخاصة فى بلاد الأتراك والفرس ـ دأبت على تصدير مؤسسات ومفاهيم ثقافية بحتة فى الأساس للمؤسسة الدينية العامّة والتى (فى ظل علاقة الدولة بالدين وفى ظل العلاقة بين القوة والمعرفة) استوعبتها وظلّلتها بظلالها وأكسبتها جلالا من جلالها وقدسيتها. ومؤسسة الأغوات حتما هى مثال حى لهذا التمحور التاريخى الاجتماعى،وكذا مؤسسة الحريم (التى يبدو أنّها تلاشت) والحجاب.

إنّ الأغوات قراءة ملزمة للمهتمين بالتاريخ والفولكلور وعلم الاجتماع.